الطيبون لا يرحلون... إنما تتعاقب الأزمان

كثيراً ما تتردد في أحاديثنا اليومية عبارات من قبيل: «ذهب جيل الطيبين»، و«هذا من زمن الطيبين»، و«يا ليت أيام الطيبين تعود»، وكأن الطيبة كانت امتيازاً حصرياً لجيل مضى، وكأن الزمن الذي نعيشه اليوم قد خلا من أهله الطيبين!

والطريف في الأمر أننا حين نردد هذه العبارات، لا ننتبه إلى أننا نصنّف أنفسنا، دون قصد، خارج دائرة الطيبين، وكأننا نعترف بأن الطيبة كانت هناك، في زمن مضى، ولم تعد تسكن بيننا!

والحقيقة أن لكل زمن طيبينه، ولكل جيل حكاياته الجميلة، وذكرياته التي يحنّ إليها كلما ابتعدت به السنوات. فالذي عاش طفولته في الستينيات يرى فيها أجمل الأزمنة، ومن نشأ في الثمانينيات يتغنى بتلك الأيام، ومن عاصر التسعينيات يجد في تفاصيلها ما لا يجده في سواها. وغداً سيأتي جيل اليوم ليقول عن أيامه: «كان ذلك زمن الطيبين».

ليست المسألة إذن أن زمناً كان جميلاً وآخر جاء قبيحاً، بل إن لكل زمن جماله الذي لا يشبه غيره، ولكل مرحلة من العمر نكهتها الخاصة التي لا تتكرر.

نحن لا نشتاق إلى الماضي لأنه كان مثالياً، ولا لأن أهله كانوا ملائكة لا يخطئون، بل لأننا نشتاق إلى أنفسنا حين كنا هناك؛ إلى طفولة لم تكن تعرف ثقل المسؤوليات، وإلى وجوه غابت، وأماكن تغيرت، وتفاصيل صغيرة كانت تصنع في قلوبنا أفراحاً كبيرة. نشتاق أحياناً إلى بساطة الحياة، لا إلى تفاصيلها كلها، وإلى دفء العلاقات، لا إلى خلوّ الماضي من العيوب.

ثم إن الطيبة ليست مرتبطة بتاريخ ميلاد، ولا محصورة في جيل دون آخر؛ فالقلوب الطيبة لا تتقاعد بانقضاء زمن، ولا تغادر الدنيا مع رحيل جيل. ما زال بيننا من يكرم ضيفه، ويجبر خاطر غيره، ويحفظ الود، ويصون العشرة، ويقدم المعروف دون انتظار مقابل. وربما كان بين أبناء هذا الجيل من يحمل من النبل والوفاء ما يفوق كثيراً مما نحكيه عن أيامنا الخوالي.

ولعل الأجمل أن نتوقف قليلاً عن تمجيد الماضي على حساب الحاضر، وأن نمنح أبناء زماننا فرصة ليكونوا

طيبين بطريقتهم، وأن نرى جمال أيامنا قبل أن تتحول إلى ذكريات، فنحن اليوم نعيش زمناً سيحنّ إليه أبناؤنا غداً، وسنصبح نحن أنفسنا جزءاً من حكاياتهم الجميلة.

فلا تقولوا: ذهب جيل الطيبين؛ فالطيبون لم يذهبوا، وإنما تتعاقب الأجيال، وتتغير ملامح الحياة، وتبقى الطيبة قيمة لا يحدّها زمن، ولا يحتكرها جيل.

وربما يجدر بنا أن نستبدل بتلك العبارة قولاً أكثر إنصافاً للحياة:

«في كل زمان طيبون، وفي كل جيل حكاية جميلة، وما أجمل أن نكون نحن طيبي هذا الزمان، بدلاً من أن نظل نبكي طيبي زمان مضى».